

الباب الثامن

الأدب في عهد الثورة

١٤٥ - ٣٠ ق . م

الفصل الأول

لكريشيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف في أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقها ، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية . من ذلك أن *Varro* و *Nepos* قد وجدوا السلامة في دراسة الآثار القديمة وفي البحوث التاريخية . وعادت من حروبه ليدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستار من المقالات الأدبية الرائعة . ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب في النحو ويواصل حروبه في شروحه *Commentaries* ، وحاول *Catullus* و *Calvus* أن يجدا في الحب وفي الغزل ملبجاً يعصمهما من أعاصير السياسة ، وفر *Lucius* وأمثاله من ذوى القلوب الضعيفة والنفوس المرهفة الحس إلى حدائق الفلاسفة ، وغادر *Seneca* من آن إلى آن حرارة السوق العامة ليهدي أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب . ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطفئ عليهم جميعاً . وما من شك في أن *Lucius* نفسه قد أحس بالقلق الذي يصفه في الفقرة الآتية :

« إن عبثاً يثقل عقولهم وجبلا من الشقاء يرسو فوق قلوبهم . . . ذلك أن

كلامهم لا يعرف ما يريد فيعمل دائماً لتبديل مكانه ظناً منه أن في استطاعته أن يلقى حمله عن عاتقه : فهناك رجلاً قد مل الحياة في منزله ، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة ، ولكنه لا يجد نفسه في خارج الدار أحسن منه حالاً في داخلها فيعود إليها فجأة . فتراه مسرعاً يسوق جياده إلى بيته الريفى لا يلوى على شيء ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتشاءب أو يحاول نسيان متاعبه في النوم العميق . وقد يبلغ به الأمر أن يعود من فوره إلى المدينة . وهكذا يفر كل امرئ من نفسه ، ولكن نفسه التي لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها ، وهو ينكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه . وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من ورائه ظهرياً ، ويسعى قبل كل شيء لفهم طبيعة الأشياء .

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشيوس **Titus Lucretius Carus** هو قصيدته . ولم يشأ أن يذكر في هذه القصيدة شيئاً عن نفسه ؛ أما فيما عداها فإن الأدب الرومانى يغفل إغفالا عجيبياً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استثنينا إشارات قليلة في مواضع منه مختلفة . ونحدد الرواية المأثورة تاريخ مولده بعام ٩٩ أو ٩٥ ، وتاريخ وفاته بعام ٥٥ أو ٥١ ق م . ، أى أنه عاش نحو خمسين سنة من سنى الثورة الرومانية : سنى الحرب الاجتماعية ، ومذابح ماريوس ، وإرهاب صلا ، ومؤامرة كاتلين ، وقنصلية قيصر . وكانت الأرسطراطية التي ينتمى إليها فى الأغلب الأعم آخذة فى الانحلال البادى للعيان ؛ وكان العالم الذى يعيش فيه يتصدع ويتردى فى الفوضى التي لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله . وقصيدته حينئذ منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية .

وبلأ لكريشيوس من متاعب العالم إلى الطبيعة والفلسفة والشعر . ولعله أيضاً قد عرج على الحب ، فإذا كان قد وقع له شيء منه فما من شك فى أنه لم يوفق فيه ، لأنه يقسو فى كتابته على النساء ، ويشهر بفتنة الجمال ،

وينصح الشباب المتعطش لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط
الجنسى الهادى الطليق^(٢) . وكان يجد في الغابات والحقول ، وفي للنبات
والحيوان ، وفي الجبال والأنهار والبحار ، كان يجد في هذه كلها بهجة
لا يعادلها إلا شغفه بالفلسفة . وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث
Wordsworth ، قوى الإدراك مثل كيتس Keats ، توحى إليه المدرة
أو ورقة الشجرة ، كما توحى لشلى Shelley ، علم ما وراء الطبيعة ، وكان
لجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه ، فكانت تحرك عواطفه
صور الأشياء وأصواتها ، ورائحتها ومذاقها ، وكان يحس بصمت المرابض
الحنفية ، وسدول الليل الهادى ، وطلوع النهار المتثاقل . وكان كل شيء
طبيعى أعجوبة الأعاجيب في نظره - ماء ينساب على مهل ، ونبات يخرج
من البذور ، وتغير دائم في الجو ، ونجوم في السماء ثابتة لا تحول ، وكان
يرقب الحيوانات في شغف وعطف ، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال ،
ويحس بالأمها ، ويعجب من فلسفتها التي لا تعبر عنها الألفاظ . ولم يرقبها
شاعر غير عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتزمة ،
بمثل ما عبر عنه هو . فهنا كسبت الطبيعة في آخر الأمر معاقل الأدب ،
وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هومروس
وشيكسبير .

وما من شك في أن هذه الروح الحساسة التي تستجيب إلى ما حولها
من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بنخايا الدين ومظاهره الخلابية ، ولكن
الدين القديم الذي كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام
الاجتماعى قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة في رومة .
فقد كان قيصر مثلاً يتسم في لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر ،
كما كانت مادب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان . وكان من الأهلين
أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة ، وكان بعض الساسة الرومان
يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة ، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades
في أثينة^(٣) . أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم ، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل المملوطة بالدماء والتي كانت تعبد فيها « الأم الكبرى » الفريجية ، أو الإلهة ما الكيدوكية ، أو بعض الآلهة الشرقية التي جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا . وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن « أوركوس » Orcus ، وهي التي كانت تمثلها في صورة مكان تحت الأرض يأوى إليه الموتى بلا تمييز بينهم ، فصاروا يعتقدون بوجود جهنم حقيقية « Tartarus » أو أكيرون Acheron يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة في مجتمع جديد^(٤) . وقد نظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهين ، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب في القرى المنعزلة وفي قلوب الكثيرين من الأهلين ، وأقبل العرافون والمنتبوثون الكلدان على إيطاليا يجرسون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء ، ويكشفون عن الكنوز المخبأة وعمما يخبئه المستقبل ، ويفسرون الأحلام والفتوول تفسيراً ماؤه الحذر والغموض ، أو الملق النافع . وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مألوفة ، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة . وكان الدين الذي يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والنفاق .

فلا عجب والحالة هذه إذا اشمأزت نفسه منه ، وثارت عليه ، وهاجمه بكل ما في قلب المصلح الديني من جرأة وحماسة . وفي وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من تقى وإيمان ، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء ، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ . فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقدته من إيمانه بالدين القديم ، فتنقل من تشكك إنبيوس Ennius إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التي شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد . ولما عرف آراء أبيتمور خيل إليه أنه عثر على جواب المسائل التي كانت

تخبر عقله ، وبدا له أن الرجل الحر يجهد في ذلك الخليط العجيب من المادية وحرية الإرادة ، ومن الآلهة المرححة والعالم الذي لا يؤمن بالآلهة ، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف . ولاح أن نسمة من نسمة التحرر من المخاوف السماوية تنبعث من حدائق أبيقور ، وتكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشؤونها وسلطانها على مصائرنا ، ومن أن الموت أمر طبيعي لا تلام عليه . ولذلك اعترى لكريشوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذي صاغها فيه لكريشوس ويصهرها فيخرجها شعراً ، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هي الطريقة المثلى ، وهي الحقيقة ، بل هي الحياة نفسها . وكان يحس أن في نفسه قوة نادرة مزدوجة - فيها إدراك العالم الموضوعي ، وعاطفة الشاعر الذاتية ؛ ويرى في نظام الطبيعة بأكمله سمواً ، وفي عناصرها جمالاً ، بشجعان وبررارة هذا التزاوج بين الفلسفة والشعر . وقد أبرز هذا الهدف العظيم الذي كان يعمل له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقي الفعلي ، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكة خائر القوى ، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولاً . غير أن كدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً في روحه الدينية من إخلاص عميق .

ولم يختار لكريشوس لقصيدته عنواناً شعرياً بل اختار لها عنواناً فلسفياً هو : De Rerum Natura « في طبيعة الأشياء » ، وهي ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التي اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم . وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس ميموس Caius Memmius في عام ٥٨ ق . م لتكون لهم سهلاً هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك . وقد حذا في طريقة عرضه لما احتوته من الآراء طريقة أنبا دقليس في ملحمة ، كما احتذى في تعبيره لغة إثيوس العجيبة الخالية من الزخرف والتجميل ، واختار لها

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض ، وهو الوزن السداسي الأوتاد ، ثم نسي إلى حين إهمال الآلهة شئون الناس وتباعدتها عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى فينوس إذ خالها رمزاً للرجبة المبدعة ، واطرائق السلم كما كانت محبوبة أنبادقليس فقال :

يا أم شعب إنياس ، يا بهجة الخلق والآلهة ، أي فينوس المغذية المربية ! . . . إن جميع الأحياء تحمل بها أمهاتها وتلدتها ، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت . وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك ، وتبددت سحب السماء ؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة ، وإليك تضحك أمواج البحر وتتلألأ السماء الصافية بالضياء الشامل . ذلك ، أنه إذا ما بدت تباشر النهار في فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة ، هلت لك طيور الهواء أولاً ورحبت بقدومك ، أيتها الإلهة المقدسة ، لأن قوتك قد نفذت في قامها ، ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراعى التي تفرح بقفزها ، وتعبر بالحدول السريعة الجريان ، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير في ركابك أينما سرت ، ثم تبعثن بالحب الجميل في صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية ، وأوكار الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء ؛ وتوحين إليهما بأن تتناسل وتخذ أنواعها . وإذا كنت أنت وحدك تتحكمين في طبيعة الأشياء ، وبغيرك لا يرتفع شيء إلى شواطئ الضوء اللامعة ، ولا يوجد شيء بهيج أو جميل ؛ فإن نفسي تقوق إليك لتكوني شريكتي في كتابة هذه الأبيات . . . ألا فامنحني أيتها الإلهة ألقاظي جمالا لا يتركها الفناء ، واجعلني في خلال ذلك الوقت أعمال الحرب الوحشية تنام وتسكن . . . وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانجني حوله من عليائك ، وصبني الألقاظ الحلوة من فمك ، واطلبي نعمة السلام إلى الرومان (٥) .

الفصل الثاني

في طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما في جدل لكريشيوس من اضطراب حماسي في صورة منطقية ، فإن فكرته الأساسية تتمثل في ذلك البيت المشهور :

Tantum religio potint suadere malorum

« ما أكثر ما بعثه الدين في قلوب الناس من شرور ! » (٦) .

فهو يروي قصة إفجينيا في أوليس ، والضحايا البشرية التي يخططها الحصر ، والذبايح التي تقدم قرباناً للآلهة التي يمثلونها في صورة البشر النهمين ، ويذكرونا بالأهوال التي تحيط بالسذج والشبان حين يضلون في أجام الآلهة المنتقمة الجبارة ، وما يقذفه في قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب ، وبالأهوال السفلى التي يصورها الفن الإتروري والقصص الشرقية الغامضة الخفية ، وهو ينحى باللائمة على بني الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفي ويقول :

« أيها الخلائق البائسون ما بالكم تعزون إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير ! كم من أحزان يهيتها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) وكم من جراح تشخن بها أجسامنا ، ودموع تذرّفها أعين أبنائنا ! ذلك أن التقوى لا تكون في كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار ، ولا في الاقتراب من جميع مذابح القربان ، ولا في الركوع والسجود . . . أمام هياكل الآلهة ، ولا في إسالة دماء الحيوانات على المذابح . . . بل التقوى هي أن يكون في طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادي مطمئن » (٧) .

ولا ينكر لكريشيوس وجود الآلهة ، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة
عنا ، سعيدة كل السعادة في عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعهم ،
هنالك « وراء أسوار العالم المشتعلة » (extra flammantia moeina mundi)
بمناى عن ضحاياها وصلواتنا ، وهي تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن
الشئون الدنيوية ، فائقة بتأمل الجمال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام (٨) .
وليست الآلهة في رأيه هي التي خلقت العالم ، وليست هي سبب ما يقع فيه
من الأحداث ، فنذا الذي يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتمها بأنها سبب
ما في الحياة على الأرض من تلف ، واضطراب ، وآلام ، ومظالم ؟
كلا إن هذا الكون اللانهائي الذي يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه ،
ولا شأن له بغيره ، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه ؛ فالطبيعة تفعل كل
شيء من نفسها . منذا الذي أوتي من القوة ما يستطيع به أن يتصرف في
الأشياء مجتمعة ، ويقبض بيده على ذلك العنان القوى عنان الأبدية التي
لا قرار لها ؟ منذا الذي يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة . . .
ويهب السماء الصافية بالرعد القاصف ، ويقذف بالبرق فيزلزل به في كثير
من الأحيان هياكل الآلهة ، ويرسل الصواعق فيقضى بها على البريء
وينجو منها المجرم (٩) . إن إله الكون الذي لا إله سواه هو القانون ،
وأصدق العبادات ، والسبيل الوحيدة إلى السلام أن يعرف الناس ذلك
القانون ويحبوه . إن مخاوف العقل وظلمته لا تبيدها أشعة الشمس . . .
بل يبيدها النظر في قوانين الطبيعة (١١) .

وهكذا « يمس » لكريشيوس « برحيق ربات الشعر » مادية دمقريطس
الحشنة ، ويصرح بأن مبدأه الأساسي المقرر أن لا وجود إلا للذرات
والفراغ (١٢) أي المادة والفضاء ، ثم ينتقل من فوره إلى مبدأ جوهرى
(وافترض) من مبادئ العلم الحديث ، وهو أن ما في العالم من مادة
وحركة لا يتغير أبداً ، وألا شيء ينشأ من لا شيء ، وأن ليس الإلتلاف
والتحطيم إلا تغيراً في الشكل ، وأن الذرات لا تتحطم ، ولا تتبدل ، وأنها

صلابة ، مرنة ، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون ، وأنها لا حدود لها ، يتدخل بعضها في بعض ليتكوّن منها مركبات وصفات لا حصر لها ، وتتحرك حركة لا انقطاع لها ، فيسكون الأشياء العديمة الحركة البادى للأنظار : « فكثيراً من نرى على سفوح الجبال . . . الأغنام ذات الأصواف تزحف حيث يفرها بالزحف الكلاّ الذى تتلأأ عليه قطرات الندى ، وترى الحملان التى شبعت ورويت تلعب وتتناطح فى لعبها بروثومها . ولكن هذه كلها تنظمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها ، وتبدو لطفة بيضاء على تل أخضر . وتنتشر الجيوش الحرارة فى بعض الأحيان فى ميادين واسعة ؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب ، تسطع دروعهم البرزية فتضىء ما حولها ، وتنعكس على قبة السماء ، وتزازل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل ، وتصطمم هذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى إلى نجوم السماء . ومع هذا فإن فى قلب الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك ؛ ولا تبدو أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل » (١٣) .

وتحتوى الذرات (*) على المنيات minima أو « أصغر الأشياء » ، وكل منيمة minimum جسم نهائى صلب ، لا يقبل الانقسام ، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب فى اختلاف أحجام الذرات وأشكالها ، وهو الاختلاف الذى ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها . والذرات لا تتحرك فى خطوط مستقيمة أو منتظمة ، بل إن فى حركتها انحرافاً أو زيفاً دقيقاً لا يستطاع قياسه ، وفيها تلقائية عنصرية تسرى فى جميع الأشياء وتصل إلى غايتها فى إرادة الإنسان الحرة (**).

(*) لم يستعمل لكريشيوس هذا اللفظ قط ، ولكنه يطلق على جزئياته الأولية اسم

« الأوليات » أو العناصر أو البذور primordia, elementa. Semina .

(**) قارن هذا بمبدأ « المحتمة » التى يمزوها بعض علماء الطبيعة فى هذه الأيام للكهارب

(الإلكترونات) . (المترجم)

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء ، ولكن التوزيع التدريجي للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج - عن غير قصد - الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم ؛ وفي الفضاء اللانهائي تنشأ باستمرار عوالم جديدة وتنفذ عوالم أخرى قديمة ، والنجوم نيران مثبتة في حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية . وهذا الجدار الكوني الناري هو الذي يكون « أسوار العالم الملتهبة » : ثم انفصل جزء من الضباب البدائي عن هذه الكتلة وأخذ يندور وحده وبرد فتكونت منه الأرض . وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات والمجاري التي تحت الأرض ؛ كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض ؛ وليس المطر مرحة من جوف بل هو رجوع الرطوبة التي بخرتنا الشمس إلى الأرض .

والحياة في رأيه لا تختلف في جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهي نتيجة حركة الذرات التي لا حياة في كل منها بمفردها . وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعا لقوانين المادة المتأصلة فيها ، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضائها بطريقة الانتخاب الطبيعي لا بغيرها من الطرق .

لا شيء ينشأ في الجسم ويقصد به أن نستخدمه ، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذي يستخدم فيه (١٤) . . . فلم يكن هدف الذرات هو الذي جعلها ترتب نفسها ترتيبا قائما على الذكاء والفطنة ، بل السبب في ترتيبها هذا أن كثيرا من الذرات منذ الأزل قد تحركت والتقت بطرق مختلفة لا حصر لها ، وجربت كل التراكيب المختلفة . . . ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة . . . وأجيال الكائنات الحية (١٥) . وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجد من الهولوات ، فمنها ما لم تكن له أقدام ، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملصقة بجسمه . . . ولكن هذه المحاولات

كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء ، ولم تستطع هي أن تجد لنفسها الطعام ، أو أن تتصل بعضها ببعض اتصالا مبعثه الحب . . . وما من شك في أن كثيراً من الحيوانات قد بادت في ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق التزاوج والتناسل ، وسبب ذلك أن الأنواع التي لم تنبها للطبيعة صفات « تحميها من أعدائها » كانت تحت رحمة غيرها ، وسرعان ما هلكوا وانقرضت (١٦) .

وليس العقل (Animus) إلا عضواً كالقدمين والعينين ، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anima) أو النسمة الحيوية ، وهي مادة جد رقيقة تنتشر في الجسم كله ، وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه . وعلى الذرات الشديدة الحساسية التي يتكون فيها العقل تسقط الصور أو الأشرطة التي لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء . وهذا هو منشأ الإحساس . ويلشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الخالق أو الحياشيم أو الأذنين أو العينين أو الجلد . والحواس كلها صور اللمس . وهي المحك النهائي لحقائق ، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة أسوء التفسير ، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا حاسة أخرى ، ولا يمكن أن يكون العقل محك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أي على الإحساس .

وليست النفس شيئاً روحياً ، ولا هي خالدة ، فهي لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم ، وهي تنمو وتشخ مع الجسم ، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخمر ، وتتبدد ذراتها تبديداً ظاهرياً حين يموت ، ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى ، وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكاً خالصاً لنا بل هي عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها ، فإذا ما استنفدنا قواها وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتبطين شاكرين ، كما يغادر

الضعيف الوليمة ؛ وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً ، بل الذى يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه فى الدار الآخرة ؛ ولكن الدار الآخرة لا وجود لها ، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا ، فهو العذاب للناشئ من الجهل والانفعالات والتخاصم والشبه ؛ والجنة توجد على ظهر هذه الأرض ، وهى معابد الحكماء الصافية sapientum templa serena (١٧) .

ولست الفضيلة فى خوف الآلهة ، ولا فى تجنب الملذات وخشيتها . بل هى فى تناسق أعمال الحواس والمواهب بإرشاد العقل ؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقام لهم ، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم ، ولكن « ثروة الإنسان الحققة هى أن يعيش عيشة بسيطة وعقله فى سلام » (vivere parce Aequo Animo) (١٨) ، وخير من العيش الجامد المعنت فى الأبهة المذهبة « الرقود فى جماعات على الكلا الناعم بجوار غدير تحت أشجار باسقة » (١٩) ، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة ، أو أن يفقد الإنسان ذاته فى حب أطفاله والعناية بهم ، والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون ، يجرد العقل من صفائه وتدبيره : « فإذا أصابت الإنسان سهام فينوس - سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة ، أو أطلقتها امرأة يشع الحب من جسمها كله - فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه » (٢٠) . ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أيا كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها فى هذا الغرام الجنونى .

ولما كان لكريشيوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد فى قلبه متسعاً للحب ، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائى العاطفى القديم الذى يقول به اليونان الذين كانوا يمجدون الحياة البدائية ، وينادون بالعودة إلى الطبيعة ، كما مجدها روسو ونادى بالعودة إليها .

نعم لقد كان الناس فى ذلك الوقت أصعب عوداً ، ولكنهم كانوا يعيشون فى الكهوف ، ولا يعرفون الناس ، ويتناكحون بلا زواج ، ويقتل بعضهم

بعضاً بغير قانون ، ويموت منهم جوعاً بقدر من يموت من المتحضرين
بالتخممة (٢١) .

أما الطريقة التي تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشيوس في خلاصة
موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعي يقول فيها إن التنظيم الاجتماعي قد وهب
الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التي كانت أشد منه قوة
وبطشاً . وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار
وأغصانها ، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة ، وتعلم الغناء من الطير ،
وأنس الحيوان لمنفعته ، كما استأنس هو بالزواج والقانون ؛ ثم شق
الأرض ، ونسج الملابس ، وصهر المعادن وصنع منها أدواته ؛ ثم رصد
كواكب السماء ، وقاس الزمن وتعلم الملاحة ؛ ثم رقى فن القتل ، وتغلب
على الضعفاء ، وشاد المدن ، وأقام الدول .

وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر ثم
تضمحل وتفتنى ، ولكن كلا منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق
والفنون تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها « فهي كالعذارى في
سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره » (٢٢) *(et quasi cursores*
vitai lampada tradut وكل ما ينمو من الأشياء يضمحل : الأعضاء ،
والكائنات الحية ، والأسر ، والدول ، والأجناس ، والكواكب ،
والنجوم . والذرات وحدها هي التي لا تموت أبداً ، وتوجد إلى جانب قوى
الخلق والنماء قوى أخرى تعادها وتوازنها وهي قوى التدمير ، وهذه لا تنقطع
عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض ، وحيات وموت . وفي
الطبيعة خير وشر ، والآلام يلقاها كل كائن حي وإن لم يستحقها ،
والانحلال يتبع خطى كل تطور ، وأرضنا نفسها في طريقها إلى الموت
والفناء ، وما هي ذى الزلازل تخربها وتدمرها ، والأرض تفقد قدرتها على
الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها ، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر
إلى البحار ، وسيأتي على عالمنا النجمي كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال ؛

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تهدم وتنحرف (٢٣) ،
ولكن ساعة الفناء نفسها تكشف عما في العالم من حيوية لا تقهر ، ويمزج
بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد (٢٤) وتتكون عوالم جديدة
ونجوم وكواكب جديدة ، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى ،
ويبدأ التطور من جديد .

وإذا ألفينا نظرة عامة على هذه القصيدة التي تعد « أروع نتاج الأدب
القديم كله » (٢٥) ، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب : كاضطراب
موضوعاتها التي حال موت الشاعر في مستقبل العمر دون مراجعتها ، وتكرار
عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها ، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم
ليست في حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها (٢٦) ، وعجز النظام الذي تشرحه
القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك ،
وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان في المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة
وساوى ، وإلهام وشاعرية قوية محرّكة ، كما أغفل ما للدين من آثار
اجتماعية . ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة
الجريئة التي بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً
منطقياً معقولاً (*) ، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه
القانون لا يعترى المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان . وأمام عظمة الموضوع
الذي تحدث عنه ونبل الطريقة التي عرض بها ؛ وأمام قوة الخيال المتصلة
التي تشعر في كل مكان « بجلال الأشياء » وتسمو بروى أنبادقليس ،
وعلم دمقريطس ، ومبادئ أبيقور الأخلاقية ، إلى شعر يبلغ من الروعة
والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف في جميع العصور . فها هي ذى لغة
كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد في ذلك الوقت أن تكون

(*) توجد كثير من بذور الأشياء التي تمينا على الحياة ، ولكن لا شك أيضا في أن
ثمة بذوراً أخرى كبيرة تتطير حولنا وتؤدي إلى المرض (٢٧) .

خلواً من المصطلحات الفلسفية والعلمية ، ولكن لكريشوس لم يخلق فيها مفردات جديدة فحسب ، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس ، وصاغ الوزن السداسي صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له في أية لغة أخرى من اللغات المعروفة ، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها في شعر فرجيل . وإن ما في قصائد لكريشوس من حيوية لا انفارقه في وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها ، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة .

وكيف مات لكريشوس ؟ يقول القديس جيروم Saint Jerome إن « لكريشوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب ، بعد أن كتب عدة كتب . . . ثم مات منتحراً في الرابعة والأربعين من عمرة » (٢٨) . وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها ، ويشك الكثيرون في صحتها ، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروي رواية عن حياة لكريشوس منزهة عن الهوى . وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة في قصيدته نفسها ؛ ذلك أن منها شواهد على الدهن المكثود غير الطبيعي ، فضلاً عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة ، وأنها مقتضبة تنتهي انتهاءً فجائياً غير متوقع (٢٩) . ولكن الإنسان ليس في حاجة إلى أن يكون لكريشوس - ولكريشوس دون غيره - لكي يكون حاد المزاج سريع التهيج ، مهوشاً ، ولكي يموت . لقد كان لكريشوس كما كان يوربديز رجلاً من الطراز الحديث ، وكان تفكيره وإحساسه يواثمان عصرنا الحاضر أكثر مما يواثمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد تأثر به هوارس وفرجيل في أيام شبابهما ، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه في كثير من عباراتهما الجزلة ، ولكن الجهود التي كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشاعرين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

ليس من الحكمة أن يعبراً في صراحة عن إعجابهما بلكريشيوس ويعترفان بما في عتقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لم تكن توائم العقل الروماني ، كما كانت أعمال الأبيقورين توائم الذوق الروماني في عصر لكريشيوس (*) ، فقد كانت رومة في حاجة إلى رجل ذى فلسفة ميتافيزيقية يمجّد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية ، وإلى عالم أخلاقى يلبس شعباً حربياً كامل الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء ؛ وكانت في حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتى فرجيل وهوراس ، تبرر سيطرة رومة الإمبراطورية ؛ ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشيوس ، ولم يبدأ يظهر أثره في الفكر الأوربي إلا بعد أن كشفه بيجو Poggio من جديد في عام ١٤١٨ ب . م . وقد أخذ طبيب من مدينة فيرونا Varona يدعى جيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro (١٤٨٣ - ١٥٥٣) عن الشاعر نظريته التى يقول فيها إن المريض ينشأ من « بذور » Semina خبيثة تسبح في الهواء ، وفي عام ١٦٤٧ أحيا جاسندي Gassendi الفلسفة الذرية . وكان فلتير يقرأ في طبيعة الأشياء في خشوع ويقول كما قال أوفيد Ovid إن ما فيها من آيات ثورية سيبقى ما بقيت الأرض (٣٠) .

وقد خاض لكريشيوس بمفره أقسى الوقائع في زمانه ونعنى بها إحدى وقائع الحرب الأبدية بين الشرق والغرب ، بين « القلب الحنون » والإيمان الباعث للسلوى المخفف للأحزان من جهة ، والعقل العنيد الجاسى والعلم المادى من جهة أخرى . ولسنا في حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة ، وأنه هو الذى سما بالأدب اللاتينى كما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده ؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومة .

(*) سخدم لفظى أبيقورى ورواقى في هذه الملمات بمعنى المؤمن بفلسفة أبيقور وزينون فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق . وقد نستعملها فى بعض الأحيان لوصف الشخص الذى يميل إلى الدعة والنميمة فى الحالة الأولى أو إلى تجنبها فى الحالة الثانية .

الفصل الثالث

حبیب لزیبا

فی عام ٥٧ ق . م غادر رومة کيوس مميوس **Caius Memmius** الذى
أهدى إليه لكريشيوس قصيدته ليكون بريتورا اولاً فى بثينيا **Bithynia** ،
وكان حکام الولايات الرومان قد أخذوا فى ذلك الوقت يعتادون عادة جديدة
هى أن يصطحب كل منهم عند سفره إلى ولايته أحد المؤلفين . ولم يأخذ هذا
الحاکم معه لكريشيوس بل أخذ شاعراً يختلف عنه فى كل شىء عدا قوة عاطفته
ويدعى كونتس (أو كيوس) فليريوس **Quintus Valerius Catullus** .
وكان كونتس هذا قد قدم إلى رومة من مدينة فيرونا موطنه الأصيل ،
وكان لأبيه فيها من المنزلة ما يجيز له أن يكون ضيفاً كثير التردد على قيصر ،
وما من شك فى كونتس نفسه كان على جانب كبير من الثراء ، فقد
كانت له بيوت ذات حدائق بالقرب من تيبور **Tibur** وعلى شواطئ بحيرة
جاردا **Garda** ، وكان له بيت جميل فى رومة . وهو يقول عن هذه الأملاك
إنها كانت مستغرقة فى الدين ، ولا ينفك يعلن أنه فقير ، ولكن الصورة
التي نستطيع أن نرسمها له من قصائده هى صورة الرجل المهذب الذى لا يتم
بكسب العيش ، ولكنه يتمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب فى صحبة
أمثاله المترفين فى عاصمة الدولة . وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع
الخطباء السياسيين من الشبان أمثال ماركس كيليوس **Marcus Caelius** وهو
شريف أصبح فيما بعد شيوعياً ، وليسينيوس كلفس **Licinius Calvus** الشاعر
النابه والقانونى الضليع ؛ وهلثيوس سنا **Helvius Cinna** الشاعر الذى كاد
الغوغاء من أنصار أنطونيوس يحسبونه أحد قتلة قيصر وينهالون عليه ضرباً
حتى يقضى نحبه . وكان هؤلاء يعارضون قيصر ويوحون له كل ما تسعفههم



(شكل ١٠) « ساينو » - المتحف القومى بنابلى

oboeikanda.com

به عقولهم من نكات لاذعة ، وهم لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما
تعبّر عن الثورة التي يعيشون في جوها ، وكان هؤلاء جميعاً قد ملوا الأدب
القديم ، ولم يطبقوا فجاجة نيفيوس Naevius وإنيوس Ennius وألفاظهما
الطنانة المزوقة . وتناقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان
جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوماً من الأيام في الإسكندرية
أيام كليمكس Calimachus ولكن رومة لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه .
ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف
التي كانت تلتقي على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين .
وكانوا ينادون بقدسية الغرائز ، وبراعة الشهوات وعظمة التهلك والانغماس
في الملاذ ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين
كانوا يعيشون في ذلك الجليل وفي الجليل الذي يليه : من هوراس Horace
وأو قد Ovid وتيلس Tibullus وپروپريتوس Propertius ، بل ومن قرجيل
الحجول في أيام شبابه ، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة
متزوجة أو غير متزوجة ، تقدم لربات شعرهم حبا سهلاً عابراً .

وكانت كلوديا Clodia أرشق فتاة في هذه الفئة ، وهي من سلالة
أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة (*) .
ويؤكد لنا آپوليوس Apeulius (٣١) أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزيبا
Lesbia إحياء للذكرى ساپفو Sappho التي كان يترجم قصائدها أحياناً ،
ويحاكيها كثيراً ، ويحبها دائماً . ولما جاء كاتلس إلى رومة في الثانية
والعشرين من عمره اتخذها صديقة له ، بينما كان زوجها حاكماً في بلاد
غالة الإيطالية . وقد سحرت لبه من ساعة أن وضعت « قدمها البراقة على
عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل ، وكان يدعوها إلهته المتألقة
ذات الخطوة الرشيقة » . ولا غرابة في أن تفتنه خطاها ، فإن مشية المرأة
قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها . وقد عطف عليه فرضيت

(*) انظر ما قلناه عنها قبل في هذا الكتاب .

أن يكون من بين عباها ، ولم يكن في وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع
في غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدميها أجمل ما في اللغة
اللاتينية من القصائد الغنائية ، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سابقو
لجنون المحين وهو الجنون الذي كان يمتلكه وقتئذ (٢٢) ، وكتب في الطائر
الذي كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كتب في وصف الغيرة :

أيها الطائر يا بهجة حبيتي

التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها

والتي تمد لك سبابتها إذا طلبتها ،

وتذريك بأن تعضها عضه قوية .

لست أدري أية دعاة لطيفة يلد لحبيتي الوضاعة

أن تداعب بها أمنيته . . . (*) .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعادة قد غمرته ، وظل يتردد عليها كل

يوم ينشدها قصائده ، ونسى كل شيء إلا حبه إياها وافتتانه بها .

أي لزهباي حبيتي هيا بنا نعيش ،

ولا تلق يالا إلى شيء مما ينطق به العجائز القساة

ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار ؛

قد تغرب الشمس ثم تعود ؛

أما نحن فإذا غربت شمسنا القصيرة الأجل

غلب علينا السبات الطويل في ليانا الأبدى ؛

ألا فاعطني ألف قبلة ثم مائة

ثم ألفاً أخرى ، ثم مائة ثانية

(*) لم يترجم أحد حتى الآن قصيدة كاتلس شعراً إنجليزياً والعبارة العربية التي في

هذه الصفحة تكاد تكون ترجمة حرفية لما يقابلها في اللاتينية .

ثم ألفاً بعدها ، ثم مائة
حتى إذا بلغت القيلات آلافا مؤلفة
تعمدنا الخطأ في العد والحساب لكيلا نعرف نحن عددها
أو نحسدنا عليه نفس حقيرة
إن عرفت عدد قبالاتنا الكثيرة :

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة ؛ وأكبر الظن أنها قد
ملت آلافة المؤلفة ، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من
أجله بأن تستبدل به عاشقا غيره . واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها
كاتلس في نوبة من نوبات الجنون « تعانق ثلاثة آلاف زان مرة
واحدة » (٣٥) . وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحرب تلتهم فواده
(adi et Amo) (٣٦) ، وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء
وإخلاص ، وصور لنا هذا الإباء بالصورة الماثورة عن كيتس Keats :

إن الألفاظ التي تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع ،

يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية ،

وتحف على مجارى الماء الدافقة (٣٧) .

ولما أصبح الشك اللاذع يقيناً لا مرية فيه ، استحال هيامه بها حقداً
عليها ورغبة قوية في الانتقام منها ، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الخانات ،
وأخذ يندد بمحبها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر في
الانتحار ، على حد قوله في شعره .

وقد أظهر في الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبهه :

فقد وجه إلى صديقه مانليوس في يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على
ما يتيح له زواجه من صحبة طيبة صالحة ، وبيت آمن مستقر ، ومن متاعب سعيدة
هي متاعب الأبوة . ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب ميموس Memmius

إلى بيثينيا *Bithynia* ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من الاستعادة نشاطه وماله . ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة ، وأدى لهذا الأخ الميت في خشوع مراسم الدفن التي يؤديها الأبناء لأبائهم ، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة :

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت في كثير من الدول ووجبت البحار .
وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن .

وأهدى إليك آخر ما يهدى إلى الأموات ،
فتقبل هذه الهدايا التي تبللها دموع الأخوة ؛
ووداعاً يا أخي إلى أبد الدهر .

وبدل مقامه في آسية حاله ، وهدأ من طبعه ، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتفالاته في هذا المتشكك الذي وصف الموت من قبل بأنه « سبات الليل الأبدى » ، فوصف في « أتيس » *Atys* وهي أعظم قصائده كلها وأعدبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة سيبييل *Cybele* وصفاً رائعاً قوياً ، وامتلاّت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم ، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب . وقد قص في قصيدته « بليوس وثيتس *Peelus and Thetis* » قصة بليوس وأردياني *Ariadne* في شعر سداسي الأوتاد حلوا النغم لا يكاد يجاريه شعر فرجيل نفسه : وابتاع بعدئذ في بلده أمستريس *Amastris* نخباً صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخبيل والبحر الأدرياوي وسار به صعداً في نهر *Po* حتى وصل إلى بحيرة جاردا *Garda* وإلى بيته في سرميو *Sirmio* . وهنا أخذ يسأل نفسه قائلاً : « وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب العالم أحسن من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعابدنا ، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة ؟ » (٣٩) إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام .

إن علمنا بكاتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد في جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره ؛ وإن هذه الصرخات الغنائية ، صرخات الحب والكره ، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات عواطف كريمة حتى للأهل والأقارب ؛ ولكن الذى لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره ، ويتعمد الفحش في القول ، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم ، ويشنع على ميلهم للواط ، وعلى رائحة أجسامهم النتنة ، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً في ذلك عادة أسبانية قديمة (٤٠) ، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات كل من حوله (٤١) ، فهو والحالة هذه يتذبذب في غير عناء بين الحب والقدارة ، يقبل ويلوط ، وينافس مارتيال Martial في قيادة الناس إلى أقذار رومة ومباذلها في أركان شوارعها ، ويمثل ما يتصف به معاصروه وأبناء طبقته من مزيج بين خشونة البداوة ورقة الحضارة ، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا في آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الاصطبلات والمعسكرات . ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتيال فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأقذار لكي يسترعى بها انتباه مستمعيه .

على أنه قد كفر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة في الوصول بشعره إلى درجة الكمال . ففي أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعي غير المتكلف ما تعجز عنه صنعة هوراس وتكلفه ، وما يسمو في بعض الأحيان فوق أناقة فرجيل نفسه ، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التفنن . وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانيه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلوا شعره سريع الفهم بين السهولة ؛ وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يعرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التي يتداولها الناس شعراً رقيقاً . وقد أغنى الآداب اللاتينية بالفاظ التصغير الرقيقة ، كما أغناها بلغة الحانات الدارجة .

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها ، كما كان يتجنب الإبهام والغموض ؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة ، خفيفة على السمع ، ترحب بها الأذان . وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين (*) ، وشعراء أيونيا الأقدمين ، وأتقن ما يمتاز به شعر كلماكس Callimachus من عبارات سهلة وأوزان متعددة ، وما في شعر أركلوكس Archelochus من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض ، وما في شعر أنكريون Anacreon من نغريات قوية ، وما في شعر سابقو من حب ونشوة ؛ والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم ، فإن علينا أن ندرس كاتلس ، فقد درس هذا الشاعر أشعارهم ، وأجاد فهم دروسهم إجابة رفعتهم من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح في مرتبتهم ؛ وقد فعل في الشعر اللاتيني ما فعله شيشرون في النثر اللاتيني ، تسلمه قوة فجة فمما به حتى أصبح فنا لا يفوقه فيه أحد غير فرجيل .

(*) الذين لم يكونوا يونانيين الاصل ولكنهم اصطبغوا بالصيغة الهلنستية (اليونانية) .
(المترجم)

الفصل الرابع

العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم ، وتجلد وتنشر وتباع ؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية ، والرسائل القصيرة ، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلاً ؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدني ذي طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع ، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم . وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتيني مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع في مصر من أوراق نبات البردي التي يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء . ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان المجففة ينافس نبات البردي في القرن الأول الميلادي لكتابة الآداب والوثائق الهامة . وكانت الديباجا (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق . وكان الكتاب الأدبي يصدر عادة في صورة ملف (Volumen أي الملفوف) وتفك طياته في أثناء قراءته . وكان النص يكتب عادة في عمودين أو ثلاثة أعمدة في كل صفحة ، نحالياً في كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها . وكانت بعض المخطوطات توضحها برسوم بالحبر ، فقد كان كتاب *Imagines* لـ *Varro* مثلاً يتألف من سبعمئة صورة لعظماء الرجال ، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها . وكان في وسع أي إنسان أن ينشر أي مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه ، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها . وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب ، ويطعمونهم ، ولكنهم يؤجرونهم على عملهم ، ولذلك كانت الكتب رخيصة ؛ وقد جرت العادة في أول الأمر أن تكتب

ألف نسخة من كل مخطوط . وكان بائعو الكتب يشترون النسخ بجملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى في محال بيعها . ولم يكن الناشر أو البائع يعطى المؤلف شيئاً ، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية في بعض الأحيان ، ذلك أن الرسوم التي تؤدي الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد ، وقد جعل أسنيوس پليو Asinius Pollio في عام ٤٠ ق . م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة في رومة . وفكر قيصر إنشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل فارو مديراً لها ، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا في عهد أغسطس ، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته .

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التي خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم ، أن أخذ الأدباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدباؤها ، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنثرات ، وكتب التاريخ ، والكتب المدرسية ، لا يقل في قوته عن فيضان نهر التبر نفسه . فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر ، وكانت كل سيدة تكتب وتلحن ، وكل قائد يدون مذكرات ، وكان العصر عصر « الملخصات » ، تخرج في كل موضوع من الموضوعات لتفي بحاجات ذلك العصر التجاري السريع . وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس فارو Marcus Terentius Varro ، رغم حملاته الحربية الكثيرة ، خلال حياته التي دامت تسعة وثمانين عاماً (١١٦ - ٢٦ ق . م) ، لتلخيص كل فرع من فروع العلم يعرفه أهل زمانه . وكانت ملفاته البالغ عددها ٦٢٠ ملفاً (نحو ٧٤ كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده . وقد افتتن بالبحث في أصول الكلمات فكتب مقالا « في اللغة اللاتينية » لا يزال حتى الآن أكبر ما يهديننا إلى معرفة لغة الرومان الأولى . ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول في رسالته « عن الحياة الريفية » De Re Rustica

٣٦ ق م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ
يعصمهم من فوضى النزاع المدني ؛ وقد جاء في مقدمة هذه الرسالة : « إن
السنة الثمانين تندرني لبأن على أن أحزم متاعى وأستعد للخروج من هذه
الحياة » (٤٢) ، وهو يرى أن تكون آخر وصيته له مرشداً يهديه إلى الحياة
الريفية الهادئة السعيدة ، ويعجب بالنساء القويات اللاتي يلدن في الحقول ثم
يوصلن عملهن من فورهن (٤٣) . ثم يبدي حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد
بين الوطنيين ، وهو النقص الذي أخذ يبدل سكان رومة ويقول : « لقد
كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها ، أما الآن فإنها
تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على
أن تلد طفلاً واحداً » ؛ ويقول في « هاريات المقرسة » Divine Antiquities
إن كثرة النسل والنظام والشجاعة في أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها
عقيدة دينية . ويأخذ بقول المشرع العظيم كونتس موسيونس أسكيثولا
Q. Muciu Scaevola إن الدين نوعان - أحدهما للفلاسفة والثاني لعامة
الشعب ، وينادى بأن ثانيهما يجب أن يقوى وتثبت دعائمه ، على الرغم
مما فيه من عيوب وتقائص لا يرتضيها العقل ، ويشير إلى بذل الجهود
لإرجاع عبادة آلهة رومة القديمة إلى عهدها الأول ، وإن كان هو نفسه
يوثمن بنوع غامض من وحدة الوجود (٤٥) . ولقد تأثر بكاتو وپوليبيوس
فألقى بنفسه في تيار سياسة أغسطس الديلية وإن لم يكن من المؤمنين بمبادئها
كما نهج منهج فرجيل في تقواه الريفية ؛

وكأنما أراد قارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر في جميع الميادين فأكمل كتاب
الرقيب المعروف باسم « الأصول Oirgines » في كتابه هو المسمى « حياة الشعب
الروماني » - وهو كتاب في تاريخ الحضارة الرومانية . ومما يؤسف له أن الدهر

(٤٥) « روح العالم هو الله وأجزاؤه التي يكون منها أرباب حقه » (٤٥) .

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات ثارو تقريباً ، على حين أنه أبقى التراجم التي كتبها كرنليوس نيبوس **Cornelius Nepos** ، والتي لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس . لقد كان التاريخ في رومة فناً ، لم يضم إلى صفات الفن خصائص العلم ، ولم يرق حتى في كتابات قاستس **Tacitus** إلى درجة البعث الانتقادي وإلى تلخيص المصادر . ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد في ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعني به كيووس سلستيوس كرسپس **Caius Sallustius Crispus** (٨٦ - ٣٥ ق . م) ، وقد قام كيووس بعمل هام في السياسة والحرب إلى جانب قيصر ، وحكم نوميديا وبرع في السرقة ، وأنفق كثيراً من المال على النساء ، ثم ركن إلى حياة الترف والآداب في بيت له في رومة اشتهر فيما بعد بحداثته الغناء وأصبح مسكناً للأباطرة . وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها . فقد كانت « التواريخ وصرح جوهرتين ، وكتلين » كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً غنياً على « الحرس القديم » . وقد أظهر فيها كلها ما كان في رومة من انحلال خلقي (*) ، واتهم مجلس الشيوخ والمحاكم بأنها ترفع حقوق الملكية فوق الحقوق الإنسانية ، ويسنطق ماريوس **Marius** بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية ، ويطالب بأن تفتح السبيل لذوي المواهب أيا كان مولدهم (٤٦) . ويزيد في تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحاليل أخلاقية نفسية . وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريعاً أصبح هو المثل الذي احتذاه تاستس **Tacitus** .

(*) يدعى ثارو أن أنيوس ميلو **Annius Milo** قد ضبطت سلسلت متلبساً بجريمة الزنى فانهال عليه ضرباً بالسياط ، ولم يطلعه إلا بعد أن أدى مبلغاً من المال (١٤٦) . ولكن هذا أيضاً قد يكون سياسة لا تاريخاً .

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى
السوق العامة وفي الحكم ، شأنه في هذا الشأن جميع النثر الروماني في
القرن الذي كان يعيش فيه سلسلت وفي القرن الذي يليه . ذلك أن تقدم
مهنة القضاء ونشأة الديمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة
العامة ، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عددها على الرغم من عداة
الحكومة لها . وفي هذا يقول شيشرون إنك تجد « الخطابة في كل مكان » ،
وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن في النصف الأول من القرن الأول قبل
الميلاد ، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير) ،
ولوسيوس كراسس Lucius Crassus ، وسيلبيوس روفوس Sulpicius
Rufus ، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius ، وفي وسعنا أن
نتصور ما كان هؤلاء الخطباء من رثاء قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون
لهم كانت لا تتسع لهم السوق الهامة ، بل كانت تخص بهم الهيساكل
والشرفات المجاورة لها . وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع
مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنى
أغنياء رومة . وقد ترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر (٦) ،
وكان إلقاؤه قويا حيا حتى كان روسيوس وإبسيوس وغيرهما من كبار
الممثلين الدائعي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم
من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقائه ؛ وقد حذا حذو كاتو
الأكبر فراجع خطبه ونشرها ، وهو الفن الذي وصل به منافسه شيشرون
إلى ذروة الكمال ، والذي جعل للخطابة أبلغ الأثر في النثر الروماني كله ؛
ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى في البلاغة
والرونق والقوة والجمال الذي يبلغ جمال اللغات الشرقية ؛ والحق أن
الخطباء الثبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا
يعيبون على ما يسمونه الأسلوب « الأسيوي » إسرافه في المحسنات اللفظية ،
وفي إثارة عواطف السامعين ، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

وبروتس Brutus و بليو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة « الأتكى » الذى يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال . وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين « الإبداعية » و « الاتباعية » أى بين النظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة ، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب ؛ وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعى يجارون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومة على أمرها فى كل شىء حتى فى الخطابة نفسها .

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الروماني ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأتيكية ، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة في فن الخطابة ، وقد لخص في بعضها تاريخ البلاغة الرومانية في حوار واضح بارع وضع فيه للقواعد التي يجب اتباعها في تأليف الخطب وفي الإيقاع والإلقاء . ولم يسلم في هذه الرسائل بأن أسلوبه « أسوي » ، وقال إنه قد حذا فيه حذو دمستين Demosthenes واتهم « الأتيكيين » بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تقيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التي وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الخيل التي يلجأ إليها الخطباء الناجحون ، فهي توفى على الغاية في عرض ناحية واحدة من نواحي الموضوع الذي يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماسة ، وفي إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر ، وفي إثارة كبرياتهم وأهوائهم ، وعواطفهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم ، وفي عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاة سواء كانت صحيحة أو مما يرونها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ، وبخذه في تحويل انتباه السامعين من النقط التي في غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم في جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ؛ ولا تدعى هذه الخطب أنها عادة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهي خلاصات يستغل من

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة في المسارح ، ولكنها مباحة في السوق العامة وفي ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون في أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ؛ ويقول لبيزو **Piso** إن العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين شر عهده ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمخلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد . ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه في **In Pisonem** . وجدير هنا فوق هذا أن تقر بأن في خطب شيشرون من الأناية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، بل إن فيها من الأناية والبلاغة أكثر مما فيها من الفطنة أو التعمق القالوني ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط . إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوي ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبني الإنسان ؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فائقة ، وقوة عاطفية وجمال ؛ لقد كانت خطبه أممي ما وصل إليه النثر اللاتيني ؛ وقد كتب إليه قيصر الكريم وهو يهدي إليه كتابه « في التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ؛ لقد نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشري أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية » (٤٧) .

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية . لقد أملى هذه الخطب كلها لإقلا منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستنتشر على الملأ ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

وسريته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريته ؟ وفي ذلك يقول نيبوس Nepos « لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك أن في وضع قارئها أن يطالع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ؟ وأسلوبها في الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، مليء بالملح والفكاهات (٤٩) ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغة الدارجة . وهي أكثر ما بقي من آثار شيشرون . بل من النثر اللاتيني كله طرافة وامتعة ؛ ومن الطبيعي أن نجد في هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهي تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص . وليس فيها كلها أثر واحد للثقي والإيمان اللذين يطالغاننا كثيرا في مقالات شيشرون أو في تلك الخطب التي يجعل الآلهة فيها ماجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص في كثير من الناس ، وخاصة في قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به بجملة (٥٠) ، وفيها يظهر غروره الشديد الذي لا يكاد يصدق العقل أطف وأحب إلى النفس مما يظهر في خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أيضا ذهب . وهو يقر مباتسها بأن « تقديري لنفسي وثنائي عليها أعظم الأشياء قدراً عندي » (٥١) ؛ ويؤكد لنا في سداجة ساحرة أنه « إذا كان في الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا » (٥٢) ؛ ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال ، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة . فقد كان له فضلا عن بيوته ذات الحدائق في أربينوم Arpinum وأستوري Asturae وپتيولي وپمپي Pompeii كان له فضلا عن هذه البيوت ضيعة في فورميا Formiae تبلغ قيمتها ٢٥٠٠٠٠ سسترس ، وأخرى في تسكولوم Tusculum تساوى ٥٠٠٠٠٠ ، وقصر على تل پلاتين

Palatine كلفه ٣٠٠٠٠ ر. ٥٠٠ ر. (*) ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شذيفة مشينة إذا ما اتصف بها الفيلسوف .

ولكن هل في الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة؟ والحق أن الإنسان إذا أمن في قراءة هذه الرسائل يكاد يجب هذا الرجل . إنه في واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور في نشر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملاً مجداً ، وأبا رحماً ، وصديقاً وفياً ، وفي وسعنا أن نراه بيته مولعاً بكتبه وبأبنائه ، يحاول أن يحب زوجته ترنتيا Terentia الغضوب المصابة بالريثة والتي لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة . ولقد أوتي هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة ، وكانت متاعهما ومنازعاتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة ، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن على المال نشأ بينهما ، ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج بيليا Publia ؛ وقد استلفت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن ، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا Tullia طلقها هي الأخرى ، وكان يجب تليا أشد الحب ، فلما ماتت حزن عليها حزناً كاد يذهب بعقله ، وأراد أن يشيد لها معبداً كمعابد الآلهة . ومن أطف رسائل شيشرون رسائله التي كتبها إلى تيرو Tiro كبير أمناء سره والتي كتبها عنه . وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مخزلاً ، ويشرف له على أمواله بقدره وأمانته كافأه عليهما شيشرون بتحريره من الرق . وأكثر الخطابات عدداً هي التي كتبها إلى أتكس Atticus الذي كان

(*) وهذا المبلغ الأخير اقترضه شيشرون من أحد عملائه . ولسنا نعرف هل رده له أو لم يرده . وقد كان المحامون يقترضون المال من عملائهم لأن القانون يحرم عليهم أن يتقاضوا منهم أجوراً . وكان من الوسائل الأخرى التي يستحوذون بها على المال من عملائهم ألا يتسامح هؤلاء في رصايهم . وقد ورث شيشرون بهذه الوسائل وغيرها عشرين مليون سترس في ثلاثين عاماً (٥٣) . إن أخلاق الناس وطبائعهم لتبدل دساتير الدول .

يستثمر لشيشرون أمواله المدخرة والذي أنجاه من عدة ورطات مالية ،
ونشر له مؤلفاته ، وأسدى إليه من النصيح السيد ما لم يعمل به . وقد
كتب شيشرون إلى أتكس ، وكان غائبا في بلاد اليونان عن حكمة وفطنة
حين بلغت الثورة عنفوانها ، خطابا يعد مضرب المثل في الوفاء وعدوبة
اللفظ قال فيه :

لست أشعر بحاجة أشد من حاجتي إلى من أستطيع أن أفضى إليه
بكل ما يتصل بي ، ومن يحبني ، ومن أثق بحزمه وحصافة رأيه ، ومن
أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ . إن أخي الذي يفيض
صراحة وحنانا غائب عني . . . وأنت يا من أنجيتني من متاعبي وأسباب
قلقي برأيك السيد ، ويا من كنت رفيقي في الشؤون العامة وموضع ثقتي
في جميع شئوني الخاصة . وشريكى في جميع أقوالى وأفكارى - أين أنت؟ (٥٤)

وبينا كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر
الروبيكون وهزم بيمبي ، ونصب نفسه حاكما بأمره ، اعتزل شيشرون
الحياة العامة إلى حين وأخذ ينشد الراحة من عنائها في قراءة الفلسفة
والكتابة فيها . وقد كتب إلى أتكس في ذلك الوقت يقول له : « تذكر
ما وعدتني به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لي . إنى أحبا أعظم
الحب ، وتشمز نفسى أشد الاشمزاز من كل ما عداها » (٥٥) . وقد عمل
وقتئذ بما كان ينصح به غيره ، وأصدر في فترة لا تزيد إلا قليلا على
سنتين ما يكاد يكون مكتبة في الفلسفة (*) . ذلك أن ضعف العقيدة
الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغا أخلاقيا لاح .

(*) De Republica, De Legibus, De Academia, De Consolatione
and De Finibus, De Nature Dcorum, De Divinatione, De Fato, De
Virtutibus, De Officiis, De Amicitia, De Senectute, De Gloria, Disputationes
Tusculanae

وكل هذه في سنة ٤٤ ق . م وفي مايو ٤٥ - ٤٤ ألف شيشرون خمسة كتب

في فن الخطابة .

أن رومة تتردى في مهاوى الانحلال الخلقى والاجتماعى . وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين فتهدى هذه الطبقات إلى الحياة الطيبة ، وتحفزها لأن تحيا هذه الحياة ، ولم يكن يعتزم أن يضيف إلى النظم الفلاسفية السابقة نظاماً جديداً ، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم في حياته (٥٧) . وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر في غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحدثين (٥٨) ، وأن عمله لا يزيد على تكيف رسائلهما تكيفاً جديداً ، بل إنه في بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل ، ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الجاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة ، واضحة ، جذابة ، وجمل بحوثه بالحوار . وكان يتنقل فيها تنقلا سريعاً من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجذباء ، إلى المشاكل الحية ، مشاكل السلوك وحكم البلاد . وقد اضطر كما اضطر لكريشيوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة ، ونجح في هذا نجاحاً جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كليهما . والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون مثل الذى ازدانت به في عهد شيشرون . وكان أفلاطون هو الذى استمد منه شيشرون معظم أفكاره ؛ ذلك بأنه لم يكن يجب تحكم الأبيقوريين الذين « يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الوثائقين ، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا لساعتهم من مجتمع الآلهة » . وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقيين الذين يلوون الحجج عن قصد وتعدد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسها إنما وجدت لمنفعة الأدميين» (٥٩) وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه في بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل . وكانت النقطة التى بدأ منها فلسفته هى بعينها بداية فلسفة الأقدمية الجديدة The New Academy - أى التشكك الهين الذى لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد ، والذى يرى في الاحتمالات الراجعة ما يكفى مطالب الحياة البشرية ؛

وفي ذلك يقول في بعض كتاباته : « إن فلسفتي في معظم الحالات هي فلسفة الشك (٦٠) ولعلكم تأذنون لي ألا أعرف ما لا أعرفه » (٦١) . ويقول ، في موضع آخر : « إن الذين يريدون أن يعرفوا رأي الشخصى يظهر من قدرأ من التشوف لا يقره العقل » (٦٢) . ولكن ما أوتى من قدرة فائقة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته ؛ فهزأ بالتضحيات الدينية ، والهاتمين والعرافين . ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب ، ويتساءل في معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم ، وهو الاعتقاد الذى كان واسع الانتشار في تلك الأيام ، هل كل من قتلوا في واقعة كاني قد ولدوا في مطلع نجم واحد (٦٣) . بل إنه ليشك في أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه ، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريها كغيره من الحقائق الكثرية التى يدفعنا حتمنا إلى الجرى وراءها . ويظن شيشرون أن في مقدوره أن يقضى على العقائد القديمة كلها قضاء مبرما بالسخرية منها والاستهزاء بها . فيقول مثلاً : « إذا سميت الحب سيريز Ceres (*) وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة ، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذى يعتقد معه أن ما يأكاه إله بحق » (٦٣) . على أن شكه في الإلحاد لم يكن يقل عن شكه في أية عقيدة تحكيمية أخرى . فهو يرفض العقيدة الذرية (***) التى كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس ، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهديها ولو ظلت تفعل كذلك أبد الدهر ، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنا الذى نعيش فيه . وشأنها في ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها « هولبات إنيوس » (٦٤) . ويقول إن

(*) سيريز هو الاسم الرومانى لدمتر Demeter إلهة الحرث والحب عند اليونان .

(**) هى العقيدة القائلة بأن الذرات قد تجمعت ونظمت نفسها فنشأ الكون من ذينك

التجمع والتنظيم . (المترجم)

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفي في حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة : ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام ، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل (٦٥) ؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمي في الوقت الذي كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة . ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح ، ولعله كان يسميه سياسة وحسن تصرف . ذلك أن الأخلاق الرومانية ، والمجتمع الروماني ، ونظام الحكم فيه ، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم ، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كي يموت . (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمثل هذه الحجج) . ولما توفيت تاليا التي كان يحبها أعظم الحب ، اشتدت به نزعة الأمل في الخلود . وكان قبل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعار من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس في « حلم سيبو » الذي اختتم به « جمهورية » أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت ، ينعم فيها الموتى من العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى . أما في رسائله الخاصة - وحتى في رسائله التي يواسي فيها الثاكليين من أصدقائه - فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة .

وإذ كان على علم بما يسرى في أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التي أقام عليها بحوثه في الأخلاق والسياسة كانت أساساً دنيوية محضة ، لا تعتمد قط على تأييد غير تأييد القوى الطبيعية : فهو يبدأ (في De Finibus) بالتساؤل عن الطريق الموصل إلى السعادة : ثم يوافق الرواقين في شيء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفي للوصول إليها ، ومن أجل هذا تراه (في De Officiis) يبحث عن طريق الفضيلة . ويفلح بفضل جمال أسلوبه في أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين ، وفي ذلك يقول : « الناس جميعاً إخوة ، وخلق بنا أن نعد العالم كله مدينة مشتركة للآلهة والبشر على السواء » (٦٦) . ثم يواصل حديثه قائلاً إن

اسمى المبادئ الخلقية هي الولاء لهذا الكل ، ولاء يكون الحافز له هو الضمير الحى . وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللمجتمع ، أن يقيم حياته على أساس اقتصادى سليم ، وعليه بعدئذ أن يؤدي واجباته بوصفه مواطناً فى بلده ، والسياسة الحكيمة أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية (٦٧) .

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحاً ، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً - وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت فى رومة نفسها ، وعنده أن الحكومات الأرسطراطية تصالح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقاً ، ولكن شديرون ، وهو من أفراد الطبقة الوسطى ، لا يسلم تسليماً مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرسطراطيتها خير الأسر . والحكم الديمقراطى فى رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلاً ، وهذا فى ظنه لا يكون أبداً . هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون . ولذلك كان خير الحكومات هى التى تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومة قبل عهد ابنى جراكس ، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الديمقراطية ، ووساطة مجلس الشيوخ الأرسطراطية ، وسلطة القنصلين التى لا تكاد تقل عن سلطة الملوك فى السنة التى يتوليان فيها منصبهما . والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازين تصبح حكومة استبدادية ، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرسطراطية ألچركية ، وتجعل الديمقراطية حكم الفوضى وتستحيل إلى فوضى وطغيان . وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية ، وكأنه فيما كتب كان يصوب السهم إلى صدر قيصر :

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينبتون من مغالاة الناس فى التحلل من القيود تحللاً يسميه الناس حرية ، كما ينبت النبات من الجذور . . . وإن هذه الحرية تهوى بالأمة آخر الأمر إلى درك الاستعباد . . . إن كل شىء يزيد على

حده ينقلب إلى ضده . . . وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها في العادة زعيماً يتوددها . . . وهو إنسان جرىء لا ضمير له . . . يسعى لنيل رضا الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم . ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كهيره من الأفراد فلأنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ، ويجددون له هذه الحماية على الدوام ، فيحيط نفسه بحرس مسلح ، وينتهي به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذي حباه القوة والسلطان (٦٨) .

ولكن قيصراً رغم هذا نال بغيته ، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد في القانون ، والصدقة ، والمجد ، والشيخوخة ، وبأن « القوانين تلتزم الصمت في أيام الحرب » *Silent lege enter arma* على حد قوله هو نفسه . على أنه كان في وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير في فلسفة القانون ، وقد عرفه كما عرفه الرواقيون بأنه « التفكير الصحيح المتفق مع الطبيعة » (٦٩) أي أن القانون يعمل لجعل الصلوات التي تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلوات منظمة مستقرة . وفي ذلك يقول إن « الطبيعة قد غرست في نفوسنا الميل إلى حب الناس » (المجتمع) ، « وهذا هو أصل القانون » (٧٠) ويرى شيشرون أن الصدقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التي تدعمها ، وتحدوها الفضيلة والعدالة ، وأن قانون الصدقة هو « ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة ، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها » (٧١) ، وعنده أن الحياة الشريفة هي خير ضمان للشيخوخة السارة ، وأن الاستهتار والإسراف في أيام الصبا يتركان للشيخوخة جسماً محطاً منهوكاً قبل الأوان . أما الحياة التي تقضي على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين ، ولنضرب لذلك ماسينسا *Masinassa* والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان « يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية » (٧٢) . وللشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجاده - ففيها الحكمة المتسامية ،

وفيه حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم ، وفيها تبدأ حتى الرغبات والمطامح . وقد تخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كوّنته الفلسفة ، فأدرك أن وراء القبر ، في أحسن الأحوال ، حياة جديدة أسعد من الحياة الدنيا وفي أسوأها راحة من عنائها (٧٣)

وفي وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون في الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر ، وأنها كآرائه في الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية . وسبب ذلك أنه وإن أوتي تشوف العالم فقد أوتي معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم . ولذلك ظل في فلسفته نفسها سياسياً يكره أن يسقى إلى شخص واحد من الناس ، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب . وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويبيد الموازنة بين ما لها وما عليها ، فإذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذي دخل منه ، لا يدري أي الكفتين ترجح على الأخرى . ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لغني عنها الزمان ، ولما بقي لها ذكر الآن . فما أجل لاتينية شيشرون وما أسهل قراءتها ، وما أسلس لغتها وأوضحها ! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التي تسرى في خطيه فتسترعى الأسماع وتسحر الألباب ، وإذا وصف شخصاً أظهر في هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخي رومة (٧٤) ، وإذا انطلق في الخطابة أفاض على السامع جملاً متزنة ، جميلة اللفظ ، قوية العبارة ، مما أخذه عن إيزوقراطيس Isocrates ، وجعل السوق العامة تدوى بالتصفيق والاستحسان .

إن آراء شيشرون هي آراء الطبقات العليا ، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب ؛ ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكي يكون

هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه ، وأن تكون الحقائق التي يوردها
بما يهزّ مشاعر السامعين هزاً ، وهو يمزج المعنويات بالنوادر والفكاهات ،
وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً ،
فوسّع نطاق مفرداتها ، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة ،
وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوروبا الغربية سبعة عشر قرناً
من الزمان . وإن الأجيال التي جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر
منه رجل سياسة ، ولما أن نسي الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال
مجيّدة ، أو كادوا ينسونها ، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ،
ظلوا يمجّدون فتوحه في عالم الأدب والفصاحة . وإذا كان من عادة الناس
أن يمجّدوا الصورة كما يمجّدون المادة ، وأن يعظموا الفن كما يعظمون
العلم والسلطان ، فقد نال شيشرون ، دون سائر الرومان ، من الشهرة
ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده ، ولم يغفر هو لرومة هذا الاستثناء
الوحيد .